ثنائيَّة الشرق والغرب في المنظور الأَفريقي خلال العصور الوسطى

بشَّار أَكرم جميل *

تأريخ التقديم: 2022/8/21 تأريخ القبول: 2022/9/24

المستخلص:

تباينت النظرة الأَفريقية للشرق وللغرب في المُدَّة التي انتهت فيها العصور الوسطى وبدأت فترة العصور الحديثة؛ إِذ نظر الأَفارقة إِلى الشرق ممثلاً بالعرب المسلمين القادمين من بلدان المسلمين المختلفة، فضلاً عن البربر القادمين من المغرب الإسلامي (الشمال الأَفريقي)، فقد نظر الأَفارقة إِلى هؤلاء نظرة الإخوة والتسامح والمحبة واندمجوا معهم منذ اللحظة الأولى التي وصلوا فيها إِلى أَفريقيا تجَّارًا أَو مهاجرين حاملين معهم بضائعهم ومتحلين بأخلاق الإسلام التي دفعتهم للتعامل بصدق وأَمانة مع التاجر الأَفريقي، كما لمس الأَفريقي من ذلك المسلم القادم من الشرق صفات كبيرة تؤهله للاندماج في المجتمع الأَفريقي، ووصول ذلك الزائر كان جالباً للحضارة والمدنية التي ارتسمت بملابسه النظيفة وزيه المحتشم وعدم تعاليه على الأَفارقة المختلفين عنه في اللغة واللون والعرق .

ووفقاً لذلك فإِنَّ البحث سيناقش تلك المسألة بعرض مسائل عانى منها الأَفارقة في مُدَّة سيطرة الأُوربيين على البلاد بعد حملات الاستكشافات الجغرافية، ويقارن بينها وبين وصول القادمين من الشمال الأَفريقي ومن الشرق عبر البحر الأَحمر، الَّتي مثَّلت مرحلة ازدهار حضاري في أَفريقيا، ووفق ذلك حدد الأَفارقة نظرتهم إِلى المنطقتين وإلى الشعبين المسلم بكل قومياته والأوربي المسيحي، ومن الدراسات السابقة التي عالجت الموضوع كتاب الرق ماضيه وحاضره لعبد السلام الترمانيني، وكتاب الإسلام والتمييز العنصري لصلاح الدين الأَيوبي.

* أُستاذ/قسم التاريخ/كلية الآداب/جامعة الموصل.

وقد اتبع البحث على المنهج التاريخي القائم على ذكر الوقائع ومعالجتها بالسرد والتحليل، مما يعطي صورة واضحة للقارئ عن مكانة كل قطب من أَقطاب الثنائية في نظر الأَفارقة السود سكان المنطقة.

الكلمات المفتاحية: أَفريقيا، العرب، البربر، الغرب، الاستكشافات.

أولاً : جغرافية المنطقة :

تعتني هذه الدراسة بتأريخ أفريقيا جنوب الصحراء أَو كما سُمِّيت ببلاد السودان التي يحدها من الشرق من البحر الأَحمر، ويحدها المحيط الأَطلسي من الغرب، ويحدُّها من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية ((الخراب مما يلي خط الاستواء)) [1]، وبلاد السودان واسعة وكبيرة، إِلَّا أَنَّها ((قفرة في معظمها وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إِلَّا من وجه المغرب لصعوبة المسالك)) [2]، وبقيت كذلك حتَّى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حيث اكتشفت عدة مسالك أخرى للوصول إليها من الشرق ومن الشمال [3]،ففي المُدَّة السابقة لم يكتب الجغرافيون العرب القدامى شيئاً مفصلاً عن أرض السودان فيما عدا الحديث عن منطقة الواحات، وبعض الشيء عن خطوط التجارة، حتى مجيء المؤرخ العربي البكري المتوفى سنة 487هـ/1094م، الَّذي تحدث عن بلاد السودان بشكل أوسع مركزاً على مدنه الكبيرة واتصال بعضها ببعض، والمسافات بينها [4] .

---

(1) القلقشندي، المصدر نفسه : 273/5 ؛ عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (الجزائر : د/ت) ،ص15-16 ؛ باسيل دافيد سون ،أفريقية القديمة تُكتشف من جديد (القاهرة:د/ت)، ص103؛ احمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني ـ إمبراطورية مالي ـ 1230 / 1430 م، (أبو ظبي : 1999)، ص 58 .

(2) الأصطخري، المسالك والممالك، ص30.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص103؛ احمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ،الباب العاشر،(الرباط:1988)، ص66 ؛ دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء (الموصل:1985) ،ص21.

(4) البكري، المُغرب ،ص172.

لقد تميزت الرقعة الجغرافية لأفريقيا جنوب الصحراء في مدة الدراسة بالتوسع، وذلك بفعل عوامل عَدة منها، تعَرف المؤرخين المسلمين عليها، ووصول التجار والمهاجرين العرب المسلمين إِلى مدنها عاماً بعد آخر، وكذلك بظهور الدول والممالك الإسلامية في المنطقة، لذلك نجد أَنَّ من تعرض لتلك المنطقة من الكُتَاب لم يترك تحديداً واضحاً ودقيقاً للمنطقة ككُل، بل أقتصر كلامهم عن المناطق التي زاروها ،أو سمعوا عنها فقط [1]،على أن هذا لا يمنع من تأشير حدودها.

أَمَّا تسمية المنطقة فيُعدُّ المؤرخون والجغرافيون العرب أول من أطلق اسم بلاد السودان على أَفريقيا جنوب الصحراء وعلى سكانها فقالوا : ((السودان بعد أن استوحوا لون بشرة القوم)) [2]، ويشير القلقشندي، إِلى أَنَّ ((أهلها ــ بلاد السودان ــ طوال في غاية السواد وتفلفل الشعور ...))[3]، ويذكر مؤرخ آخر عند كلامه عن بلاد النوبة [4]،بأن سكانها سود البشرة [5]، وهناك دلائل أخرى تؤكد الترابط بين

---

(1) الشاطر بصيلي عبد الجليل، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط (القاهرة : 1972)،ص412.

(2) أبي عبيد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية (دمشق:1968)، ص93 ؛ نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان (بيروت:1967)،ص9 ؛ يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السودان (بيروت : 1967):20/1. ويربط المسعودي بين طبيعة المناخ في بلاد السودان وبين لون البشرة بقوله: " أن الوانهم اسودت واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت الوانهم " .أنظر : أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، التنبيه والأشراف (بيروت : 1965) ،ص24.

(3) احمد بن علي القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الأنشا (بيروت : 1987) : 5 / 272 .

(4) بلاد النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ،وأول بلادهم بعد مدينة أسوان المصرية ،والسكان كانوا نصارى يعاقبة عندما صالحهم الخليفة عثمان بن عفان ﷺ على أربعمائة رأس من الرقيق في السنة، ولا تبعد النوبة عن نهر النيل إلا قليلاً . أنظر : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان (بيروت:د/ت) : 309/5 ؛ أبو عبد الله محمد بن ادريس الادريسي، صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، (ليدن : 1968)، ص20-21.

(5) ناصر خسرو، سفرنامة، (بيروت : 1983)، ص 81 .

التسمية ولون بشرة السكان، إذ أكد ابن خلدون، ذلك بقوله: ((وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أَو السابع المنحرف إِلى البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام، وبالعكس ...)) [1]، ويلاحظ بالنص التأكيد على اللون وارتباطه بالمناخ، الَّتي بها تمت تسمية المنطقة .

وكان استخدام مصطلح السودان تمييزًا لهم عن سكان الصحراء المغاربة، إذ تم استخدام المصطلح من قبل المؤرخين السودان كذلك [2]، كما تم استخدام مصطلح بلاد التكرور كمرادف لبلاد السودان ولاسيما من المؤرخين المغاربة؛ إذ إِنَّ أَغلب المصادر المغربية والسودانية بعد البكري قد استخدمت مصطلح (بلاد التكرور) كمرادف لمصطلح بلاد السودان [3] ،في حين جعلته المصنفات المشرقية خاص بأحد طوائف السودان (جنس أَو أمة) [4]، وكذلك توطنهم في المنطقة الواقعة بين نهر النيجر والنيل المصري أي المنطقة المعروفة بالسودان الأوسط [5] .

---

(1) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت : 1956) : 1 / 84 .

(2) محمود بن الحاج المتوكل كعت، التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، (باريس : 1913)، ص 20 ؛ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، تاريخ السودان،(باريس : 1964)، ص39 .

(3) كان البكري أول من ورد عنده اسم تكرور وقد أطلقه على مدينة توجد على الضفة اليسرى من نيل السودان (نهر السنغال) . انظر : أبي عبيد البكري، المُغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، (الجزائر : 1859)، ص 172 ؛ ثم تطورت التسمية لتشمل عند بقية المؤرخين المغاربة والسودان كل منطقة بلاد السودان . انظر : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، (الجزائر : 1982)، ص 91؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 64؛ أبو عبد الله الطالب الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، (بيروت : 1981)، ص 26 .

(4) أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (لايبسك : 1923)، ص 297 .

(5) القلقشندي، صبح الاعشى : 5 / 286 .

ثانياً : ثنائية الشرق والغرب :

أوَّل اختبار لتحديد رؤية الأَفارقة لتلك الثنائية تمثل بنظام الرق (العبودية)، فأمام كل ذلك ظهر الإسلام بتعاليمه السمحة، وتعامل مع ذلك النظام على أساس كونه حالة اجتماعية سائدة في المجتمع العربي، لذا فقد أبقى الإسلام على نظام الرق وتعامل معه كتعامله مع بقية المسائل مستخدماً التدريج في القضاء عليه(1)، وقد ركزت التعاليم الإسلامية على تجفيف منابعه الكثيرة والمتمثلة برق الحروب ورق الوراثة ورق الدين وغيرها كثير وحصرها في منبعين فقط هما رق الحروب ورق الوراثة، وإبقائه لرق الحرب كان نابعاً من أن إلغاء ذلك الباب من أبواب الرق سوف يجعل من أسرى المسلمين عبيد لدى العدو مقابل إطلاق سراح أسراهم(2) .

إِلَّا أَنَّ الإسلام في الوقت نفسه عمل على فتح أبواب عديدة لتحرير الرقيق مما عجل بإنهاء ذلك النظام بشكل تدريجي، فصار لزاماً على السيد أن يعتق عبده إذا ما ضربه متعمداً وبدون سبب(3)، وإذا ما أدعى العبد بأَنَّه حر وأصر على ذلك فهو حر (4)، كما أن كفارة الوطء في رمضان هو عتق رقبة(5)، والحنث في اليمين كفارته

---

(1) أبو الأعلى المودودي، تفسير سورة النور، دار الفكر، (لاهور:1959)، ص189 .

(2) ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد (القاهرة : 1966) : 397/1.

(3) ابو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم بشرح النووي (بيروت : **1972**): 127/11 . وقال بعض السلف "لاتضرب المملوك في كل ذنب ولكن احفظ له ذلك، فإذا عصى الله فاضربه على معصية تذكره الذنوب التي بينك وبينه" . انظر : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، كتاب الكبائر، (بيروت:د.ت)، ص204.

(4) مالك بن أنس، المدونة الكبرى، رواية الإمام سحنون بن سعيد، مطبعة السعادة، (القاهرة:1323هـ) : 75/7، عبد العزيز جاويش، الاسلام دين الفطرة، مطبعة دار الهلال، (القاهرة:د.ت)، ص75 .

(5) موفق الدين أبو محمد عبد الله بن احمد بن قدامة، المغني (بيروت : 1972) : 65/3 .

عتق رقبة[1]، وفي حالة حدوث الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف فإِنَّ التقرُّب لله تعالى يتم بعتق رقبة[2]، فضلاٍ عن فتحه باب التحرير عن طريق المكاتبة بين السيد وعبده على مبلغ من المال إذا ما سدده العبد فهو حر[3]، كما أن الأمَة التي تنجب من سيدها تصير أم ولد وتتحرر[4]، وهكذا في كثير من الأمور، لا بل أن الكلمة التي أطلقت على العبيد كانت تدل على التسامح والمحبة وهي الرِق الَّتي تعني الرقة والرفق وحسن المعاملة؛ لأَنَّ العبودية لله وحده فقط[5] .

ولم يكن هذا الرأي في مسألة الرق والتعامل الحسن للمسلمين مع رقيقهم خاصاً بجنس مُعين بل مع جميع أجناس الرقيق ومنهم الرقيق السودان كما أطلق عليهم المؤرخون العرب نسبة لسواد ألوانهم[6]، فمع بداية الدعوة الإسلامية كانت مكة وبقية الجزيرة العربية حافلة بأعداد كبيرة من الرقيق السود الذين ما لبث الكثير منهم أن تعرف على تعاليم الإسلام الداعية للتسامح مع الجميع وأَنَّها لا تفرق بين العبد وسيده فالناس جميعاً سواسية، وأن تنوع القوميات وتعدد الألوان مرحب به من قبل الإسلام والمسلمين ((يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً

---

(1) القرطبي، بداية المجتهد : 429/1 .

(2) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (بغداد : 1986) : 79/2 .

(3) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت : 1972) : 18 / 101

(4) أبن رشد القرطبي، بداية المجتهد:428/2 ؛ الجزائري، منهاج المسلم ، ص505-506 .

(5) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب (بيروت : 1997) : 123/10 .

.

(6) أبي عبيد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، (دمشق : 1968)، ص93 ؛ أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، (بيروت:1987) :272/5 .

وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم))[1] فعلم أولئك الرقيق أَنَّه الدين الحق وأقبلوا إليه بقوة ودخلوا فيه ولم يتركوه رغم التعذيب الشديد الذي تعرضوا له[2] .

لقد كان في مقدمة أولئك الرقيق الذين حصلوا على حريتهم بعد دخوله الإسلام بلال الحبشي رضي الله عنه الَّذي ذاق التعذيب على يد مشركي مكة، فقد عمل الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه على شرائه وتحريره ليصبح واحداً من الصحابة الأجلاء حاله حال أي صحابي كان في الجاهلية سيداً في قومه، وفي ذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا بلال)[3]، لا بل أن سيدنا بلال تميز عن غيره من الصحابة بأن أصبح مؤذن الرسول ﷺ وكان له شرف الصعود على ظهر الكعبة الشريفة والآذان عند فتح مكة دون غيره من الصحابة[4] .

فضلاً عن ذلك فإِنَّ عددًا من الرقيق لاسيما الأسود كان قد رفض العودة إِلى بلاده بعد تحريره وذلك بسبب المعاملة الحسنة التي كانوا يلقونها في بلاد الإسلام على يد سادتهم الذين امتثلوا لأقوال الرسول محمد ﷺ حينما نصحهم بالحسنى برقيقهم قائلاً : ((أن أخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم))[5]

(1) سورة الحجرات، أية (13) .

(2) محمد بن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، (القاهرة:1955)، ق1، ص321 .

(3) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق : محب الدين الخطيب، دار المعرفة، (بيروت : د/ت) : 99/7 .

(4) أبو عثمان بن عمرو بن بحر البصري الجاحظ، رسائل الجاحظ (القاهرة : 1964) : 180/1 .

(5) البخاري، صحيح البخاري : 83/2 ؛ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة، سنن أبن ماجة، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، (بيروت:د.ت)، ص 1216 . وكان من حق العبد على سيده ان يوفر له ماء طهارته او تراب تيممه، وبقية الامور فضلا عن طعامه وشرابه . انظر : محمد الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى

لقد جاء الإسلام ليؤكد على أن الأصل هو الحرية لجميع البشر بالإيمان بأنهم متساوون أمام الله تعالى، ولهذا اعتمد المسلمون أسلوب التعامل بالحسنى مع الأرقاء[1] .كما أن المجتمع المسلم لا ينظر إِلى الناس وفق معيار اللون، أَو العنصر، أَو الطبقة، بل بالعقيدة بالنسبة للمسلمين، وبالرابطة الإنسانية بالنسبة لغير المسلمين[2] .

وانطلاقًا من مبدأ المساواة في كل شيء بين السيد وعبده في الإسلام فقد ارتدى الرقيق الملابس التي يرتديها الأحرار في صدر الإسلام وما تبعها من عصور فكان العبد في المجتمع الإسلامي يشابه سيده في ملبسه ومشربه ومسكنه أثناء مدة رقه أَو بعد تحوله إِلى مولى[3]، بل وصلت هذه المساواة بين السادة ورقيقهم حد جعل الإماء يلبسن الحلي أكثر من سيداتهن وقد برز ذلك في العصر العباسي[4]، ولم يكتف المسلمون بإزالة الفوارق بينهم وبين رقيقهم حسب بل كانوا لا يميزون بين رقيقهم وأفراد عوائلهم[5].

معرفة معاني المنهاج، شركة مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة :1958) : 460/3 .

(1) عباس محمود العقاد، داعي السماء – بلال بن رباح – (القاهرة :1945)، ص72 .

(2) يوسف القرضاوي، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، مؤسسة الرسالة، ط1، (بيروت:2001)، ص99 .

(3) المولى : وهي كلمة أطلقت للدلالة على صلة القرابة أو صلة الرحم، كما كانت الكلمة تدل ولاسيما قبل الإسلام على الحلف والاتفاق بين أطراف يقررون التعاون والنصرة بينهم، وفي الإسلام دلت الكلمة على الداخلين في الإسلام من غير العرب، ومعناه هنا خاص بالرقيق والمسمى بولاء العتاقة حينما يعتق السيد عبده . ينظر : أبن منظور، لسان العرب : **289/20** ؛ محمد عمر شاهين، تاريخ الموالي ودورهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صدر الإسلام والدولة الأموية، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت:**2011**)، ص**22-23** .

(4) محمد بن عبدوس الجهشياري، الوزراء والكتاب (القاهرة : 1938)، ص251 ؛ الجاحظ، المحاسن والأضداد (القاهرة : 1924) ، ص 251 ؛ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، أخبار النساء (بغداد : 1989) ، ص22 .

(5) أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة:د/ت) : 411/1 .

فضلاً عن ذلك فإنَّ معرفة الأَفريقي بالمسلمين لم تقتصر على معرفتهم بالرقيق السود الموجودين في بلادهم، بل كانت نظرة الأَفريقي إِلى العربي والبربري القادمين من مناطق الشرق والشمال الأَفريقي قد تكونت بوصول المسلمين إِلى افريقيا جنوب الصحراء، فكانت نظرة محبة ورغبة في التعاون، تكونت مع اقتراب طلائع المسلمين من حدود افريقيا جنوب الصحراء عبر الحملات الاستطلاعية التي قادها قادة الفتح الإسلامي للمغرب العربي، كحملة حبيب بن ابي عبيدة الفهري سنة 116ه/734م إِلى بلاد السوس واطراف بلاد السودان، كذلك قيام ابنه عبد الرحمن بن حبيب (ت 137ه/754م) بحفر بعض الآبار في الصحراء الرابطة بين الشمال والجنوب، فضلاً عن العلاقات التجارية التي قامت بين الدولة الرستمية في المغرب واطراف بلاد السودان، كل ذلك طمأن الأَفارقة من نية القادمين الجدد من الشرق[1] .

وفي دلالة على نظرة الأَفارقة الايجابية للشرق الممثل بالمسلمين، ورغم قلة المعلومات عن ملوك غانة؛ إذ لاتصلنا سوى إشارة واحدة عن ملك توفى سنة (455هـ/1063م) بكتاب المُغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب للبكري، إلَّا أَنَّه وصفه بقوله : ((كان محمود السيرة محباً للعدل مرشداً للمسلمين))، كما يقول عن أبن أخته الذي تبعه في الحكم أنه قرب المسلمين منه وسلمهم أموراً كثيرة فأختار منهم صاحب بيت ماله وتراجمته ووزرائه[2] .

فضلاً عن ذلك فقد شمل تسامح ملوك غانة مع المسلمين المتواجدين في المملكة، فتم إعفاءهم من أداء التحية التي يحيي بها سكان غانة ملوكهم الَّتي وصفها البكري بقوله : ((فإذا دنا أهل دينه (الملك) منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم))[3]، كما تعامل رعية الملك مع المسلمين الموجودين في

---

(1) ابو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب (الجزائر : 1857)، ص157 .

(2) البكري، المصدر نفسه، ص175 .

(3) محمود بن الحاج المتوكل كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، تحقيق : هوداس ودولافوس، مطبعة بردين، (انجة : 1913م) ، ص114 .

بلادهم بنفس الأسلوب الذي تعامل به ملكهم مع أولئك المسلمين فقد تعايشوا سوية في مدينة غانة، ويصف المؤرخ البكري تلك المدينة بقوله : ((مدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها أثنا عشر مسجداً أحدهما يجتمعون فيه ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم، ومدينة الملك على بُعد ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينها متصلة، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين))[(1)] .

ولم يقتصر الأمر على عاصمة غانة فقط، فقد كانت المُدن والبلدات التابعة للمملكة تحترم المسلمين وتقدرهم كسكان بلد (غرانتيل) الذين كانوا يحتفون بقدوم المسلمين ويكرمونهم ويفسحون لهم الطريق إذا ما مروا من شوارعهم[(2)] .

وربما يثير أحدنا تساؤل حول التناقض في المسألة فكيف يقرب ملك غانة المسلمين منه ويسمح لهم ببناء المساجد وهو لا يزال على الوثنية ؟ وللإجابة عن ذلك السؤال لابد من القول أن الملك ربما يكون قد أسلم وأخفى إسلامه لكي لا يصطدم بالتقاليد الوثنية التي تمنحه السلطة وطاعة الشعب فحال إعلانه الإسلام سوف يفقد كل صلاحياته ومن بينها فقدانه لبعض المكتسبات ومنها حرمان أبن أخته من ولاية العهد[(3)]، كما أن أولئك الملوك الوثنيين كانوا يعملون جاهدين على رفع مكانتهم بين الناس كونهم ممثلي الآلهة على الأرض موهمين الرعية بامتلاكهم للمعجزات وأنهم لا يأكلون ولا يشربون ولن يصيبهم أذى فالملك (بسي) لم يكتشف الناس أنه أعمى إذ كان يوهمهم أنه يبصر كي لا يفقد احترامه[(4)] ومن بين حكام غانة الذين أسلموا

---

(1) البكري، المُغرب، ص175 . وتشير الاختبارات الأثرية على أن أقدم مسجد في غانة العاصمة يعود إلى نهاية القرن 3هـ/9م . يُنظر : أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني – إمبراطورية مالي 1230–1430م، ط1، (أبو ظبي : 1999)، ص99 .

(2) البكري، المُغرب، ص175 .

(3) الشكري، الإسلام، ص100 .

(4) البكري، المُغرب، ص174–175 .

وأخفوا إسلامهم حاكم مدينة الوكن التابعة لمملكة غانة[1]، ووفق ذلك التعامل الحسن والرغبة في التعايش تشكلت نظرة الأَفارقة للشرق، فكانت محور كبير من محاور التعامل في مُدَّة نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، ففي المُدَّة من بدء انتشار الاسلام وحتى وصول الاوربيين إلى افريقيا عرف الأَفارقة ذلك الدين الجديد الَّذي مثله المسلمين الاوائل من الصحابة المهاجرين نحو الحبشة .

وعلى عكس ذلك كانت نظرة الأَفارقة للغربيين نظرة كره وحقد بسبب موقفهم من أبناء القارة الأَفريقية ولاسيما تلك الواقعة جنوب الصحراء، فقد وصل الغربيين إلى المنطقة ولاسيما مع انطلاق الحملات الاستكشافية الَّتي كان المعلن من أهدافها هو المعرفة الجغرافية واستكشاف المنطقة إلَّا أَنَّ الغاية منها هو الوصول إلى ثروات أَفريقيا ولاسيما الذهب والحديد والنحاس وباقي المعادن، كما إن وصولهم كان بغطاء ديني ظاهره إنقاذ الأَفارقة من واقعهم وتحويلهم إلى أفراد في المجتمع المسيحي، فالأمر الذي أكد البحث عليه هو الفارق الكبير بين نظرة الأَفارقة للمجتمعين الشرقي والغربي واللذين تواجدا في المنطقة لمُدَّة طويلة، والأمر الذي اعتمد عليه الأَفارقة في نظرتهم إلى الغرب والشرق هو طريقة تعامل الشرقيين والغربيين مع السكان حينما وصل كل منهم إلى المنطقة .

والمقارنة بين فموقف الكنيسة المسيحية من الأَفارقة أمام موقف المسلمين سهل جداً، وبيان مسألة التعصب المسيحي ضد الجنس الأسود حاضرة، إذ أن تفوق المسلمين في دعوتهم تم بوصولهم إلى قلب الأَفريقي الذي رفعه الإسلام إلى مكانة اجتماعية أعلى من مكانته بين قومه سابقاً، وذلك الأمر عكس ما فعله المسيحيين معهم بتعصبهم لجنسهم ضد الجنس الأسود وأن دخل الأخير في ديانتهم، فالأَفريقي الذي يعتنق المسيحية يشعر أنه في درجة أدنى من المسيحي الأبيض، فالأبيض

(1) البكري، المُغرب، ص179 .

السيد، والأسود العبد، كما أن المسيحية تنظر إِلى الزنجي على أنه من طبقة منحطة في حين تساوى الجميع في نظر الإسلام[1] .

وتعامل الأوربيون مع الأَفارقة معاملة سيئة لم يتطرق لها مؤرخي الغرب كالمؤرخ المستشرق توماس ارنولد، فقد كان البرتغاليون مثلاً يفدون بأعداد كبيرة إِلى القارة الأَفريقية لجمع الرقيق[2] الَّذين عمل الأوربيون بعد نقلهم خارج بلادهم إِلى تفريق الرجال عن عوائلهم بعد أن يتم اصطيادهم كما تُصاد الحيوانات بحرق قرى بأكملها لكي يتسنى للأوربيين جمع الهاربين من الحرائق واستعبادهم، كما أن عملية نقلهم إِلى أوربا وأمريكا كانت تتم بوحشية حيث تعبئ السفينة التي تتسع لخمسمائة شخص بعدد أكبر بكثير ليرمى بعد ذلك في البحر من يموت بسبب الزحام أَو المرض[3] .

وقد اعترف بعض رجالات الغرب ومؤرخيهم بحسن المعاملة الإنسانية التي عامل بها العرب المسلمين الأَفارقة عموماً والرقيق السود خصوصاً، إِذ يقول ديورانت برباروسا ((أن حال الرقيق في منبسا[4] تدل على ما لأسيادهم العرب هناك من إنسانية، يعجز الواحد أحيانا أن يميزهم عن أسيادهم، إذ يبيح هؤلاء لهم أن يقلدوهم في اللباس وفي غيره من شؤون العيش))[5]، كما أكد ذلك زويمر على الفارق الكبير بين الأَفريقي والغربي بقوله ((أن بين الأوربي والأَفريقي هوة تفرق بينهما،

(1) توماس ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة : حسن إبراهيم حسن وأخرون، (القاهرة : 1970م)، ص394 .

(83) رولاند اوليفر وجون فيج، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة : دولت صادق ومحمد السيد غلاب، الدار المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة : د.ت)، ص132 .

(84) الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره، ص156-157 .

(4) منبسا : وتسمى أيضاً ممبسا وهي إحدى أهم وأقدم المُدن التي أسسها المسلمون على الساحل الشرقي الأفريقي وبلغت أوج ازدهارها في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي . ينظر : أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، (بيروت:**1970**)، ص**83** .

(5) دافدسن، أفريقيا تحت أضواء، ص17 .

والمسلمون تمكنوا من إزالة هذه الهوة التي كانت بينهم وبين الزنوج))[1]، فضلاً عن ذلك فقد أشار المستشرق (أدم سميث) إِلى المسألة نفسها بقوله : ((إن كثيراً من الرجال الانكليز الذين يعدون أنفسهم مسيحيين طيبين لن يجول بخاطرهم الإقرار بالزمالة مع المسيحيين من سود البشرة، أما المسلمون فلا يفرقون، فالعرب والزنوج والبربر أخوة في الدين ولا يختلط بعضهم بالبعض الأخر في العبادة فحسب وإنما يعاون بعضهم بعضاً عن طيب خاطر في شؤون الحياة اليومية))[2] . وهذا الأمر جعل نظرة الأَفارقة إِلى الغرب نظرة حقد وخوف وكراهية بسبب المعاناة التي عانى منها السكان الأَفارقة على يد المستعمرين الغربيين .

ويؤكد كاتب أوربي آخر أَنَّ الرق عند المسلمين يختلف عن الرق عند النصارى وأَنَّ حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوربا؛ لأَنَّ الرقيق في الشرق هم جزء لا يتجزأ من أسرة السيد بل أن الرقيق يستطيعون الزواج من بنات سادتهم بعد التحرير[3] .

لقد تسبب رأي الأوربيين بالأَفارقة السود القاضي بضرورة استرقاق الجنس الأسود لخدمة الجنس الأبيض إِلى إفراغ القارة الأَفريقية من شبابها، ففي سنة 1448م تركزت في مدينة ارغان تجارة نظامية تقوم على مبادلة البضائع بالبشر، وبعد سنة 1460م كان يقصد البرتغال وأسواقها حوالي 1000 عبد سنوياً[4]، يتم استخدامهم في مزارع البرتغال واسبانيا إذ كانوا يباعون إِلى نبلاء الأسبان ليعملوا كعمال في أراضي الريف الواسعة، فضلاً عن عمل آخرين في الجزر التي تم اكتشافها المقابلة للساحل

---

(1) نقلا عن الجندي، الإسلام، ص94 .

(2) محمود سلام زناتي، الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقيا، (بيروت:1969)، ص247-248 .

(3) غوستاف لوبون، حضارة العرب (القاهرة : 1956)، ص376 .

(4) ج . دينيس و ش . لبيب، أفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، بحث منشور في كتاب تاريخ أفريقيا العام، (اليونسكو:1988) : 668/4 .

الغربي الأَفريقي كماديرا وجزر الكناري والرأس الأخضر وساوتوميه وبرنسيب الَّتي زرعت بالكروم وقصب السكر والخضروات وأنواع من الفواكه[1] .

وكان جلب الرقيق الأسود للعمل في تلك المزارع بسبب فشل العمال السابقين من الهنود الحمر في تلك الأعمال مما شجع تجار الرقيق الأوربيين ورجال السياسة بالتعاون مع رجال الدين في استصدار قرار بمشروعية استرقاق السود، ورغم ما قام به أولئك السود من ثورات ضد الظلم والتعذيب الذي تعرضوا له في استرقاقهم إلا أن البرتغاليين وغيرهم من المحتلين نجحوا في استرقاقهم وفصلهم عن عوائلهم وأوطانهم فعاشوا في محيط غير مألوف لهم فهم لا يعرفون لغة الأهالي وعاداتهم[2] .

لقد عملت شركات تجارة الرقيق الغربية المدعومة من قبل حكومات البلدان التي تنتمي إليها على تشويه صورة الأَفارقة الذين تجلبهم كرقيق، فعملت تلك الشركات في البداية على خلق الفتن بين الأَفريقيين أنفسهم وتحفيز رؤساء القبائل وعلية القوم على اقتناص أبناء قبائلهم وبيعهم لتلك الشركات بمبدأ فرق تسد، ومن ثم العمل على ترويج أقاصيص تشير إِلى وحشية الأَفارقة وبثها على لسان المبشرين والمستكشفين والتجار لكي تقنع الجميع أن الرق بالنسبة للأفارقة هو إنقاذ لهم بنقلهم إِلى العالم المتحضر[3] .

ونظر الأَفريقي إِلى الغرب على انهم سالبين لحقوقه همهم الوحيد هو تنصير السكان الأَفارقة واستخدامهم في الاراضي الزراعية في البرتغال واسبانيا وفرنسا ومن ثم امريكا، فقد بدأت عمليات التنصير مع دخول الاستعمار إِلى افريقيا، وكانت تلك العمليات مواكبة للاستعمار، بل انها استمدت العون والتأييد منه، وسعت لتثبيت نفوذها وانتشارها به، وكان وصول المبشرين إِلى افريقيا جنوب الصحراء مع بد

---

(1) E.J.MURPHY , History of African civilization , (New york:1979) , p . 273 .

(2)Murphy , History , p. 275 .

(3) محمد عبد الفتاح إبراهيم، أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا، مكتبة الانجلو المصرية، دار الطباعة الحديثة، (القاهرة:1961)، ص139 .

الاستكشافات الجغرافية في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[1] . ويبدو سبب ضجر الأَفارقة من الاستكشافات الجغرافية منذ ايامها الأولى اكتشافهم ان السبب الرئيس لتلك الاستكشافات ليس علمي جغرافي بحت وإنما كان واجهة لأغراض دينية؛ إذ كان للدافع الديني تأثير كبير على الاستكشافات والمغامرات التي قام بها الاوربيون ولاسيما الاسبان .

الخلاصة :

في ختام البحث لابد من بيان بعض النتائج التي تم التوصل إليها :

1- تُعدُّ أَفريقيا جنوب الصحراء من أكثر المناطق وضوحًا في تحديد الفارق بين تعامل الاوربيين والعرب مع السكان لما عانته في مُدد العصور الوسطى وامتداداً إِلى العصر الحديث .

2- خيرات أَفريقيا جنوب الصحراء وما امتازت به أَراضيها من وجود معادن الذهب والزمرد والأَخشاب وغيرها جعلها مطمع للغربيين المستعمرين .

3- نظرة الأَفارقة إِلى الشرق ممثلاً بالعرب والبربر خصوصاً والمسلمين عموماً كانت نظرة محبة وتعايش .

4- الفارق بين النظرتين الأَفريقيتين إِلى الغرب والشرق شهد بها مؤرخي ومستشرقي الغرب انفسهم .

5- نتائج علاقة الأَفارقة بالمسلمين في شرق العالم الإسلامي وغربه كان لها نتائج ايجابية على تاريخ وحضارة الأَفارقة، على عكس علاقتهم بالغرب المسيحي التي أَفرغت القارة من سكانها وخيراتها مما استوجب تكوين نظرة سلبية للأَفارقة تجاه الغرب .

References

- Abd al-Qadir Zabadiyeh, **The Kingdom of Sangay during the Era of the Esqis** (Algeria: D/T), pp. 15-16;

(1) ال شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة : محب الدين الخطيب (القاهرة:د/ت)، ص15 .

- Basil David Son, **Ancient Africa Rediscovered** (Cairo: D/T), p. 103; Ahmed Al-Shukri, Islam and Sudanese Society - The Empire of Mali - 1230 / 1430 AD, (Abu Dhabi: 1999).
- Al-Astakhri, Al-Masalik and Kingdoms.
- Ibn Hawqal, **The Image of the Earth**, p. 103; Ahmed bin Yahya bin Fadlallah Al-Omari, Paths of Vision in the Kingdoms of Al-Amsar, Chapter Ten, (Al-Rabat: 1988), p. 66; Duraid Abdul Qadir Nuri, History of Islam in Sub-Saharan Africa (Mosul: 1985).
- Al-Bakri, Al-Maghrib.
- Al-Shater Basili Abdel-Jalil, **History and Civilizations of Eastern and Middle Sudan** (Cairo: 1972).
- Abi Ubaid Allah Muhammad bin Abi Bakr Al-Zuhri, The Book of Geography (Damascus: 1968), p. 93; Naoum Shukair, Geography and History of Sudan (Beirut: 1967), p. 9; Yusuf Fadl Hassan, Studies in the History of Sudan (Beirut: 1967): 1/20. Al-Masoudi links the nature of the climate in the country of Sudan with the color of the skin, saying: “Their colors are black, their eyes are red, and their souls are desolate, due to the inflammation of their air and the excessive maturity of their wombs until their colors burned).
- Ahmed bin Ali Al-Qalqashandi, Sobh Al-Asha in Sinaat Al-Ansha (Beirut: 1987): 5/272.
- Nasir Khusraw, Safarnama, (Beirut: 1983).
- Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldoun, Al-Abr, Diwan Al-Mubtada and Al-Khabar in the days of the Arabs, the Persians, and the Berbers, and their contemporaries with the greatest authority, (Beirut: 1956): 1/84.
- Mahmoud bin Al-Hajj Al-Mutawakkil Ka’at, The Insightful History of the News of Countries, Armies, and Great People, mentioning the facts of recurrence and the greatness of matters, (Paris: 1913), p. 20; Abd al-Rahman bin Abdullah bin Imran bin Amer al-Saadi, History of Sudan, (Paris: 1964).
- Abu Abdullah Muhammad bin Abi Talib al-Dimashqi, The Elite of Time in the Wonders of Land and Sea, (Liebsk: 1923), p. 297.

- Al-Qalqashandi, Subh Al-Asha: 5/286.
- Abu Al-Ala Al-Mawdudi, **Interpretation of Surat Al-Nur,** Dar Al-Fikr, (Lahore: 1959).
- Abu al-Walid Muhammad ibn Ahmad ibn Rushd al-Qurtubi, **The Beginning of the Mujtahid and the End of the Muqtasid** (Cairo: 1966): 1/397.
- Malik bin Anas, **Al-Modawana Al-Kubra, the narration of Imam Sahnoun bin Saeed**, Al-Saada Press, (Cairo: 1323 AH): 7/75, Abdul Aziz Jawish, Islam is the religion of instinct, Dar Al-Hilal Press, (Cairo: D.T).
- Muwaffaq al-Din Abu Muhammad Abdullah bin Ahmad bin Qudama**, al-Mughni** (Beirut: 1972): 3/65.
- Al-Qurtubi, Bidayat al-Mujtahid: 1/429.
- Abu Abdullah Muhammad bin Ismail Al-Bukhari, **Sahih Al-Bukhari**, (Baghdad: 1986): 2/79.
- Abu Jaafar Muhammad bin Jarir al-Tabari, **Collector of Al Byan in the interpretation of the Qur'an** (Beirut: 1972): 18/101
- Ibn Rushd al-Qurtubi, **Bidaya al-Mujtahid**: 2/428; Algerian, Minhaj Al-Muslim
- Abu al-Fadl Jamal al-Din Muhammad ibn Makram ibn Manzoor, **Lisan al-Arab** (Beirut: 1997): 123/10.
- Abi Ubaid Allah Muhammad bin Abi Bakr Al-Zuhri, The Book of Geography, (Damascus: 1968), p. 93; Ahmed bin Ali Al-Qalqashandi, Sobh Al-Asha in the industry of Al-Ansha, (Beirut: 1987): 5/272.
- Surah Al-Hujurat, Verse (13).
- Muhammad bin Abd al-Malik bin Hisham, The Biography of the Prophet, investigation: Mustafa al-Sakka, Ibrahim al-Abyari, and Abd al-Hafiz Shalaby, (Cairo: 1955), vol. 1.

- Ahmed bin Ali bin Hajar Al-Asqalani, Fath Al-Bari Explanation of Sahih Al-Bukhari, investigation: Mohib Al-Din Al-Khatib, Dar Al-Maarifa, (Beirut: D / T): 7/99.
- Abu Othman bin Amr bin Bahr Al-Basri Al-Jahiz, Rasaal Al-Jahiz (Cairo: 1964): 1/180.
- Al-Bukhari, Sahih Al-Bukhari: 2/83; Abu Abdullah Muhammad bin Yazid Al-Qazwini, known as Ibn Majah, Sunan Ibn Majah, investigation: Muhammad Fouad Abdul-Baqi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, (Beirut: Dr.T), p. 1216. It was the right of the slave over his master to provide him with water for his purification or dust for his ablution, and the rest of the things besides his food and drink. See: Muhammad al-Khatib al-Shirbiny, Mughni al-Muhtaj Ma'ani al-Minhaj, Mustafa al-Babi al-Halabi Printing Press and Library Company, (Cairo: 1958): 3/460.
- Abbas Mahmoud Al-Akkad, The Caller to Heaven - Bilal Bin Rabah - (Cairo: 1945).
- Yusuf Al-Qaradawi, Features of the Muslim Society We Desire, Al-Risala Foundation, 1st edition, (Beirut: 2001).
- Mawla: It is a word used to denote the relationship of kinship

The Duality of East and West according to the African Perspective during the Middle Ages

Bashar Akram Jameel *

Abstract

The African view of the East and the West varied during the period in which the Middle Ages ended and the period of modern times began, as Africans looked to the East, represented by Muslim Arabs coming from different Muslim countries, as well as Berbers coming from the Islamic Maghreb (Northern Africa). tolerance and love and integrated with them from the first moment they arrived in Africa as merchants or immigrants carrying with them their goods and imbued with the morals of Islam that prompted them to deal

* **Prof / Department of History / College of Arts / University of Mosul.**

honestly and honestly with the African merchant. That visitor was a bringer of civilization and civility that was evident through his clean clothes and modest dress and his lack of condescension to Africans who differed from him in language, color and race.

Accordingly, the research will discuss this issue by presenting issues that Africans suffered during the period of European control over the country after geographical exploration campaigns, and compare them with the arrival of those coming from North Africa and from the East through the Red Sea, which represented a stage of civilization prosperity in Africa, and accordingly the Africans were identified Their view of the two regions and of the two Muslim peoples with all their nationalities and the European Christian. Among the previous studies that dealt with the subject are the book Slavery, its past and present by Abd al-Salam al-Termanini, and the book of Islam and racial discrimination by Salah al-Din al-Ayyubi.

The research followed the historical method based on mentioning the facts and treating them with narration and analysis, which gives a clear picture to the reader about the position of each pole of the duality in the eyes of the black Africans in the region.

Key words: Africa , Arabs , Berbers , West , exploration.